قـــراءة الـنـصـوص وفـلـسـفـة الـدلالـة

أما قضية اعتباطية الوضع والدلالة أو انبثاقها على أساس حيثيات، فقد أكد النائيني أن إقامة الارتباط بين الألفاظ والمعاني لا تتم على أساس الترابط الطبيعي كما هو اتجاه المذهب الذاتي في تفسير الوضع، ولكنها لا تتم أيضا بصورة اعتباطية، مستنداً في ذلك إلى قاعدة استحالة الترجيح بلا مرجح. ولاستيضاح واستيفاء البحث في ما طرحه المحقق النائيني وفي قضية اعتباطية الوضع اللغوي أو قصديته ستكون لنا فرصة في القادم من فقرات هذه الدراسة.

آية الله السيد عمار أبو رغيف

لكن المهم هنا أن نحاول فهم الفرضية التي ذهب إليها النائيني في تفسير الطريقة التي يتم عبرها التدخل الإلهي في بناء صرح النظام اللغوي وإقامة العلاقات بين الدوال والمدلولات اللغوية. والفرض الذي أكده النائيني في المقام هو أن الله تعالى يلهم البشر عملية استخدام ألفاظ خاصّة عند إرادة معان خاصة، على تنوع هذا الكائن، فالإلهام الإلهي متنوّع تنوع الناس.

استقرب بعض المحققين الأصوليين فرضية النائيني ، ولم يستبعدها بعض منهم ، لكنهم فرضوا أن الله تعالى ألهم الإنسان الأول اللغة بمفرداتها ونظامها، ثم أخذت اللغة تتحرك في حياة الآدميين وفق سنن الاجتماع البشري وقوانين التلقي والتعلم الإنساني. ونموذج هذا الاتجاه نجده في كلمات أستاذنا الشهيد محمد باقر الصدر، حيث قال: (نحن لا نملك برهاناً قاطعاً على نفي اتجاه إلهية الوضع وأن الوضع ونشوء ظاهرة اللغة في حياة الإنسان كان من صنع نفسه مئة بالمئة. بل من المحتمل أن تكون قد بدأت هذه الظاهرة في حياة الإنسان أول ما بدأت بتدخل وعناية من الله سبحانه وتعالى، بأن يكون قد ألهم آدم فعلمه الأسماء والألفاظ وكيفية استخدامها في مجال نقل أفكاره وخواطره إلى الآخرين ، بل فرضية الإلهام بأصل اللغة لعلها هي المناسبة مع ما هو الملاحظ في جملة النصوص الدينية التي تؤكد أن الخليقة الأولى من البشر – آدم وزوجته – كان على معرفة واطلاع بالغة مكنتهما من الحوار والتفاهم في ما بينهما قبل أن يهبطا إلى الدنيا ويمارسا نشاطهما الطبيعي والاجتماعي فيها، وهذا من المستبعد جداً أن يحصل من دون افتراض إلهام رباني كان بذرة في طريق نشوء هذه الظاهرة بعد ذلك في حياة الإنسان).

ليس لدي شك في أن النصوص الدينية تلعب الدور الأساس في فرضية الشهيد الصدر، إذ أن نظريته في تفسير الوضع على أساس القرن الأكيد بين اللفظ والمعنى لا تستدعي فرضية أن يكون الله هو الواضع، وهي تتجاوز – كما ذهب رحمه الله – كل المبعدات التي طرحت بشأن بشرية نشأة اللغة. سنأتي على درس وتقويم نظرية (القرن الأكيد) في تفسير الصلة بين اللفظ والمعنى، وسنقف أيضا عند قضية النصوص الدينية بدءاً من النص التوراتي لنستجلي الموقف منها.

غير أن المهم هنا أن نعود إلى فرضية (الإلهام الإلهي) وأن الله تعالى هو الذي يلهم اللغة لبني البشر، لنرى أولاً جدارة التفسير الذي ذهب إليه جمع من الأصوليين، والذي قرّر – كما تقدم – أن الله علّم البشر في بداية الخليقة اللغة، التي تفي بالاتصال بين الآدميين، ثم أخذت اللغة تتطور وتنمو وفق معطيات حياة البشر وقوانين وجودهم.

إن فرضية التدخل الإلهي في إقامة النظام اللغوي بشكل أولي مبسط للخليقة الأوّلى، ثم ترك قوانين الاجتماع والنفس الإنسانية تلعب دورها في إكمال مسيرة اللغة نظاما ومفردات لا تتلاءم مع اتجاه النائيني، إذ نصَّ النائيني على بعض المسوغات التي دفعته الى تأكيد أن الفرض الوحيد المعقول هو أن الله ألهم الإنسانية اللغة ووضع الألفاظ للمعاني، والمسوغات وتفسير النائيني لانتهاء كشف الألفاظ عن معانيها إلى الله تعالى يأبيان الفرض الذي رجحه الأصوليون المتقدم ذكرهم.

فعدم تناهي المعاني والألفاظ لا يُحدُّ بلغة من اللغات ولا يقتصر على عصر أو جيل من الأجيال، ومن ثم لابد من أن يكون الإلهام مستمراً على طول العصور اللغوية، وعلى مختلف لغات بني البشر. ثم إن النائيني فسّر مذهبه بكون الله تعالى هو الواضع قائلاً: (فلابد من انتهاء كشف الألفاظ لمعانيها إليه تعالى شأنه بوجه، إما بوحي منه إلى نبي من أنبيائه، أو بإلهام منه إلى البشر، أو بإبداع ذلك في طباعهم، بحيث صاروا يتكلمون ويبرزون المقاصد بالألفاظ بحسب فطرتهم ، حسب ما أودعه الله في طباعهم)، من المؤكد أن فرض الوحي إلى نبي من الأنبياء يعني الوحي بكل لغة من اللغات إلى نبي من الأنبياء، ليخبر قومه بالألفاظ والمعاني التي لا تتناهى، وفرضية أن يكون الواضع (الله تعالى) قد أوحى بكلّ اللغات أو بلغة واحدة تشكل أُمّاً لكل اللغات إلى نبي واحد لا ينسجم مع المسوغ الذي حدا النائيني إلى القول بكون الواضع هو علام الغيوب، الذي يعرف ما لا يتناهى من الألفاظ والمعاني، إذ عدم قدرة استيعاب ألفاظ اللغة ومعانيها اللامتناهية يصدق في كل لغة من اللغات، ومن ثم ليس بإمكان أي جماعة بشرية أن تستوعب وتتعلم مالا يتناهى من المعاني والألفاظ .

وبتعبير أوضح: إن اللاتناهي في الألفاظ والمعاني لا يفرض علينا الصيرورة إلى فرضية ((التوقيف))، في وضع اللغة، لأن ما يتطلبه كل جيل وكل أمّة من اللغة هو ما يستطيع هذا الجيل استيعابه من مفردات ومعان وهو أمر متناه محدود بحدود حاجات البشر، وهذا لا يتطلب أن يكون الواضع هو (علام الغيوب). مضافا إلى أن فرضية الوحي لكل نبي من الأنبياء بتعليم قومه لغة من اللغات تتنافى مع ظاهر النص القرآني القائل : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِه)

عَلى أَن فرضية إلهام البشر من قبل الله تعالى لا يتصور لها معنى معقول – لا أقل في حدود أدواتنا ومعطياتنا التصورية والتصديقية – خارج إطار الفرض الثالث، الذي قرّر أن تكون اللغة إبداعا تكوينيا وهبة قائمة في البناء الإحيائي للكائن البشري أودعها خالق الكون ومبدع الوجود. ولا أدري كيف صار النائيني إلى فرض الوحي (وحي الله إلى أحد أنبيائه)، ومثل هذا الفرض يرفض بنفس الحجة التي رفض بها النائيني فرضية الواضع البشري، ذلك أن مثل هذا الحدث الخطير لو كان قائما في حياة الأقوام والملل ، لتناقلته الأجيال، وعرفت كل لغة بواضعها من الأنبياء الذي علم الناس تلك اللغة.

نعم، إن فرضية الوحي الإلهي باللغة لا تنسجم مع طبيعة صيرورة اللغة، هذه الصيرورة التدريجية التي تستوعب حياة أجيال وحقباً، لا يقف ولم يقف نبي على رأس كل هذه الحقب !( )، ثم لو افترضنا أن نبياً من الأنبياء قام بتعليم الناس لغة من اللغات، فليس بوسعه أن يعلمهم ما لا يتناهى من الإمكانات الموجودة في المعاني وفي نظام الاتصال الصوتي، ومن ثم لا يحيطون إلا بنزر من إمكانات اللغة، والباقي منها ما لا يتناهى من الإمكانات والاستعدادات الكامنة بالقوة في المفاهيم والمعاني والألفاظ! ومن ثم نحتاج إلى علام الغيوب المحيط بما لا يتناهى من المعاني والألفاظ ليكمل لنا وضع اللغة بمفرداتها ونظامها!

أما فرضية أن تكون اللغة إمكانية تكوينية أودعها باري الخلائق في الطباع البشرية فهي فرضية يتبناها بعض كبار علماء اللسانيات المعاصرين. وهي فرضية غريبة على مزاج الغرب التجريبي الحديث. إذ بعد سيادة المذهب التجريبي على مناهج العلوم اتجهت علوم اللغة والنفس والاجتماع صوب تفسير ظاهرة اللغة على أساس بيئي محض في إغفال متعمد لعناصر التكوين الإحيائي وما تتوارثه الإنسانية من إمكانات وجودية تدخل في نسيج التكوين السابق للتجربة ومعطيات المحيط والبيئة، فذهبوا إلى الخبرة والمران على أساس الترابط والانعكاس الطبيعي والشرطي، كأساس وحيد لتفسير الظاهرة اللغوية بكل تجلياتها، بل السلوك البشري بكل إشكاله.

عندما نربط بين سؤال النائيني وبين معالجته لمشكلة لانهائية المعاني نجد أن مصب فكر الرجل هو العقل الإنساني وعلى وجه التحديد العلاقة بين إمكانات وحدود هذا العقل واللغة، فهي إشكالية اللغة والمعرفة الإنسانية، هذه الإشكالية التي أرهقها (نعوم تشومسكي) بالبحث، وكانت منطلق نظريته في تحديد مصدر ملكة اللغة.

قد لا يكون النائيني مستحضراً إشكالية أفلاطون، حيث صاغها (برتراند رسل) قائلاً: (كيف يمكن لأفراد النوع البشري أن يعرفوا ما يعرفونه على الرغم من قصر تجربتهم مع الكون ومحدوديتها)، إلا أن المؤكد أن سؤال النائيني بصدد مصدر هذا الكم اللامتناهي من المفاهيم والمعاني وما يعدلها من ألفاظ سؤال عن مصدر معرفة الإنسان باللغة، التي هي في جوهرها أفكار ومعان، ومن ثم كان النائيني مستحضراً لإشكالية أفلاطون في وجهها اللغوي. أما (نعوم تشومسكي) فقد كانت مشكلة أفلاطون ماثلة أمامه بوجهها المعرفي عامة. وبصورتها المرتبطة بالمعرفة اللغوية على وجه التحديد، فكانت اللغة لدى تشومسكي ظاهرة تكوينية، وهي جزء من التركيب الفطري للكائن البشري خاصة، لا يهتدي البشر إليها بالهام، بل هي التي تسوق الآدميين صوب الإلهام، وهي السمة المميزة للإنسان بين الكائنات الحية، واللازم الوجودي للعقل الإنساني. بل – وهذا الإضراب لكاتب السطور – هل يمكن أن نتصور عقلاً إنسانياً دون لغة، تؤدي الوظائف الإحيائية التي خلق من أجلها الإنسان، والاتصال إحدى هذه الوظائف. واللغة ليست وسيلة اتصال فحسب، كما ذهب تشومسكي وهو محق في ما ذهب.

على حد ما نعرف – كما قال تشومسكي – فنمو هذه القدرة العقلية الإنسانية محكوم إلى حد بعيد بطبيعتنا الإحيائية الداخلية . لذلك فاللغة بصفتها قدرة طبيعية هي شيء يحدث لنا، مثل تعلمنا المشي تماماً، وبكلمات أُخر ليست اللغة شيئاً نتعلّمه، فاكتساب اللغة شيء يحدث لنا، لا شيء نقوم بتنفيذه. وهو أشبه بوصولنا سن البلوغ، فنحن لا نتعلم أن نصل سن البلوغ، ولا نقوم بذلك لأننا رأينا أناساً آخرين يعملونه، بل سبب ذلك أننا هُيئنا لكي نقوم بذلك في وقت محدد).

على هامش الصراحة

■ إحسان شمران الياسري

تحليلات مبكرة !!

يقول المتخصصون في التحليلات المرضية إن مرضى السكر بحاجة إلى نوعين من التحليل، أحدهما للإدرار والآخر للدم. وعلة هذا، إن المستويات الأولى للإصابة بهذا الداء الملعون تظهر في الدم أولا، ثم عندما يستشري المرض، وتتصاعد وتائره، يبدأ بالظهور في الإدرار.

وقد تطورت الفحوصات المختبرية كثيرا وتوسعت للكشف عن هذا الداء.. إلا أن الأصل هو تلك النظرية. يعني إن من لا يظهر عنده هذا المرض في الدم، لا موجب للكشف عليه خلال الإدرار (أرجو التأكد من هذه المعلومات).

وهذه المقدمة في الثقافة الصحية تفيد في تقييم توقيتات الكشف عن الفساد ومتابعة وقياس مستوياته وآثاره. ففي المؤسسات التي تتوفر فيها أنظمة ضبط داخلي عالية المستوى، وأنظمة للرقابة الداخلية، يتحقق الكشف بوقت مبكر، بل أزعم أن إحكام أنظمة الضبط الداخلي يمكن أن يحول دون ممارسات الفساد تماما، ويوفر على المؤسسة جهوداً وإجراءات لتقييد الفاسدين ومحاصرتهم، وربما ملاحقتهم وملاحقة المال الذي تصرفوا به.

أما المؤسسات والأنظمة التي تفتقد روحية العمل الرقابي في أجهزتها ابتداءً من المشاريع الصغيرة وحتى الأنظمة السياسية والحكومات، فأنها تبدأ فحص (مرضى السكر) من خلال الإدرار!! بعد أن يكون الداء قد استشرى ووصلت مقاساته في الدم إلى (٣٠٠) وربما (٤٠٠).. ولو أنها فحصت المرض والممارسات ابتداءً من الدم، وهو في المؤسسة يقابل منظومة السجلات والمستندات والضبط الداخلي.. ومنظومة القيم والحاكمية، فأنها ستكتشف الداء في مراحله الأولى وتقطع الأيدي التي تحتضنه..

وقد اعتدنا أن يعتلي السياسيون والبرلمانيون والمسؤولون المنصات أمام وسائل الإعلام ليدلوا بتصريحاتهم الرنانة عن استدعاء مسؤول للبرلمان واستجوابه ومواجهته بالأدلة (الدامغة) عن تجاوزات في الصلاحيات وتبديد بالمال العام وتعيين مقربين. الخ..

ولو كان المسؤول حديث العهد بالمنصب، يعني له شهران أو ثلاثة في هذا المنصب، لكان الإجراء سليما وفاعلا وينسجم من حيث الغايات والأهداف.. أما أن تكون للمسؤول ست أو سبع سنوات، صال فيها وجال وأهدر وبدد وخرب، فأن الاكتشاف المتأخر من هذه الشاكلة ليس إلا مزحة لا قيمة لها ولا يقبلها عقل ولا دين.. فالناس اكتشفت حجم الخراب الذي تسبب به هذا المسؤول منذ سنوات، فكيف لم تكتشف الحكومة، وهي تعرف كل شيء على رأي الفنان عادل إمام، إلا اليوم..

أرجو ألا تُترك مؤسسة كبيرة أو صغيرة من مؤسسات الدولة لعائلة أو عشيرة.. علينا أن نفترض أنها (مؤسسة عامة) تخص الأمة، وليس مؤسسة خاصة بعائلة المرحوم!!

كاريكاتير

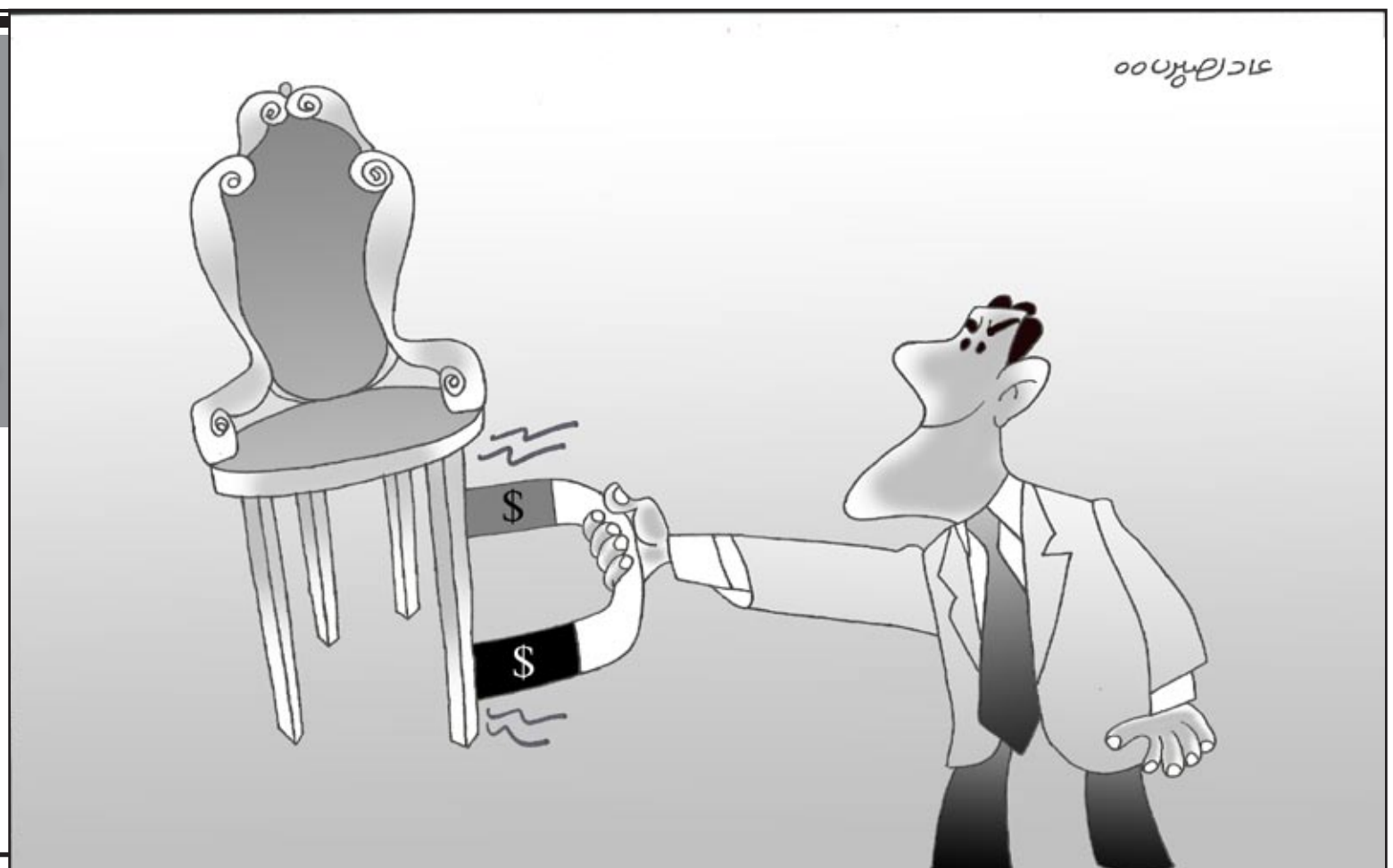

■ عادل صبري

هـي ثـــورة.. أم (هـــي فـوضـــى)؟

★ لينا مظلوم

وإن فكرة الفوضى لن تلد سوى المزيد من العنف والفوضى، وهو ما يحدث على أرض الواقع بعد الثورة المصرية... بعد أن رسّخ النظام السابق المبدأ.. اندلعت سلسلة من المعارك والأزمات الداخلية الحادة.. أقرب ما تكون إلى حالة حرب مجتمعية بين كل الفئات.. كل منها يريد تحقيق مطالبه بقوة فرض الأمر الواقع.. تظاهرات.. اعتصامات.. قطع الطرق ومسار القطارات.. وسط هذه الأجواء المشحونة تقبل مصر يوم ٢٨ أيلول على أول انتخابات برلمانية بعد ثورة ٢٥ كانون الثاني.. والمنتظر ألا تخلو من مظاهر العنف.

خريطة التيارات السياسية المصرية حاليا تضم القوى الليبرالية او المدنية وهي مع حداثة تجربة ممارستها السياسية وزمن تواجدها في الشارع المصري، تبدو مشتتة احيانا وهي تمارس لعبة السياسة بمثالية مطلقة وبراءة تصل الى حد السذاجة، وهو لا ينطبق على قواعد المناورة والدهاء السياسي. بعد النجاح المبهر لهذه القوى حين عبرت عما لا تريده في ميدان التحرير.. تعثرت لما أصابها مس الغرور نتيجة الالتفاف الإعلامي والمبالغة في تمجيد الخطوة الأولى الرائعة التي قامت بها، دون النظر الى خطورة الخطوة القادمة.. غاب عن هذه القوى كل الأطراف المتربصة- داخليا وخارجيا- للانقضاض على هذا الحدث السياسي واقتناص أكبر قدر من الغنائم.. ومما زاد الامر تعقيدا أن هذه القوى التي تفتقد الخبرة السياسية لم تجد بديلا تتوجه إليه بعد إقصاء الطاقات السياسية على مدى ٣٠ عاماً لمصلحة (خدم) النظام.. افتقاد الخبرة عكس مواقف متأرجحة ومحاولات مارستها جهات خارجية للتأثير على هذه القوى.. ما أدى الى صدامها مع الجيش والمجلس العسكري، صمام الأمان الوحيد لاستقرار مصر.. بدلا من تيسير مهمة الجيش في تأمين مرور البلاد من المرحلة الانتقالية.. أخذت هذه القوى تلقي المزيد من الأعباء والاتهامات على كاهل الجيش وهو أصلا تحمل مسؤوليات لم تكن مدرجة ضمن الخطط العسكرية الموضوعة مسبقا حين يستدعي الأمر التصدي للتهديدات التي تمس حدود مصر وأمنها.

على الطرف الآخر.. التقطت القوى الدينية بشوق ونهم، فرصة طال انتظارها لها عشرات السنين.. أخذا في الاعتبار أن الجيش لا يريد إراقة دماء، رغم كل المحاولات المستميتة التي جرت لإقحامه في هذا الموقف.. وبراءة قوى الثورة التي ابتلعت طعم أن هذه التيارات الدينية تهدف فقط الى المشاركة لا الاستحواذ على الحياة السياسية.. بينما تتوالى مواقف وتصريحات هذه التيارات على مدى عام لتؤكد رغبتها وعزمها على السيطرة الكاملة.. بداية من تصريحاتهم الاولى عن نسب المشاركة في البرلمان المصري التي بدأت بـ ٣٠٪ وارتفعت تدريجيا الى ٧٠٪.. الى التحالفات التي شكلت بين جماعة الاخوان المسلمين وباقي التيارات السلفية والجهادية.. الى إطلاق آلتهم الإعلامية ببيانات تتصف بالتعالي وتكفير المختلفين معهم والتهديد بإراقة بحور الدماء واستعراض أهدافهم في تغيير قوانين مصر المدنية وشكل حياتها.. ثم قبل الانتخابات قاموا باستعراض لقواهم حوّلت ميدان التحرير من رمز ثوري الى بقعة من قندهار او الصومال!.. هبطوا بالدين الى مستوى الخلافات السياسية، رغم ادعائهم أن الأحزاب التي شكلوها هي سياسية.. الآ ان جوهرها غلب عليه فكرة الدين بكل مفرداته.. منذ شهر آذار الماضي اعتبروا الاستفتاء الذي جرى على تعديل الدستور نصرا لهم وهلل احد مشايخهم لما اعتبروه (غزوة الصناديق)، مطالبا العلمانيين من المختلفين معهم بالهجرة خارج مصر!

على مدى الأسابيع التي تسبق الانتخابات توالي هذه الجماعات اللعب على وتر المشاعر الدينية في الجوامع والمؤتمرات بهدف التأثير على الناخب المصري- تحديدا بين شريحة تمثل نسبة لا يستهان بها – وعبر تهديدات وفتاوى تتوعد من لا ينتخب مرشحيهم بالآثم والجحيم.. بينما سينعم من ينتخبهم بالصدقة الجارية طوال عمره وملذات النعيم!، بالإضافة الى التلاعب على وتر المتطلبات الحياتية للمواطن البسيط كالغذاء والعلاج.. وهي لعبة أتقنتها هذه الجماعات منذ إنشائها.. اما البرامج السياسية والرؤية المستقبلية المحددة.. لا ذكر لها ضمن السلع التي تروج لها هذه التيارات..

المؤكد ان التيارات الدينية في مصر، وهي المرشح الاكثر ترجيحا للحصول على الاغلبية، والتي تعلن ولاءها الى النموذج السلفي الوهابي، والرافضة بقوة لأي رأي مخالف لها.. لا تخجل من تبديل مواقفها بين ليلة وضحاها حين يمس الامر مصالحها.. لعنوا الديمقراطية كرجس من عمل الشيطان.. ثم ارتموا بين أحضانها كوسيلة للهيمنة على القرار السياسي.. استقبلوا منذ فترة زيارة رئيس وزراء تركيا رجب اردوغان بالترحاب.. ثم لعنوه بعد ان صرّح انه ليس رئيس وزراء إسلامي..

رافضا فكرة الدولة الإسلامية.

وسط هذه الاجواء تعيش مصر انتخاباتها البرلمانية.. بين مخاوف وعلامات استفهام حول كونها أجواء صحية تسمح بممارسة ديمقراطية حقيقية تعكس رغبة الشارع المصري.. خصوصا مع ما يبدو تفشي داء (عمى الألوان) بين مختلف فئات هذا الشارع.. جعل رؤيتها تفقد القدرة على التمييز بين لون الثورة الناصع البياض.. ودخان الفوضى الأسود.

ينطبق العنوان المقتبس جزئيا من آخر أفلام المبدع يوسف شاهين على المناخ المصري السياسي.. شاهين الذي فضل أن يكون دوره (التحريض) وليس (التعليق) على الحدث.. أطلق في (هي فوضى) إنذارا حادا ضد انتهاج النظام السابق مبدأ الفوضى والعشوائية.. سياسة أخذ الحق بالقوة كبديل عن القانون..

★ كاتبة عراقية مقيمة في القاهرة